المقاربة التاريخو–أنثروبولوجية للاستعمار الفرنسي في الجزائر (1830–1962)

أ.د.بوحسون العربي
كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية–جامعة تلمسان–

HistoricalAnthropologicalapproach of French colonialism in Algeria

Abstract:

We study through this approach as it appears in the title the various roles of French colonialism in Algeria from the occupation in 1830 to the independence in 1962, and we depend especially the roles of ideology, cognitive, economic, cultural and social. We try to show that the colonialism used those roles not only in that period, but he was planning to use its for the future. Also, we try to explain how he was able to exploit the historical and anthropological knowledge to support his being a long period of time, even after leaving the area.

نتناول في هذا البحث كما جاء في العنوان المقاربة التاريخو– أنثروبولوجية للاستعمار الفرنسي في الجزائر، منذ تاريخ الاحتلال 1830 إلى تاريخ الاستقلال 1962، حيث نركز من خلال التحليل على الأدوار التي لعبها الاستعمار في المنطقة وفي الجزائر بخاصة، ولاسيما الأدوار الإيديولوجية والمعرفية والاقتصادية والثقافية الاجتماعية. حيث لم يكتف بها في وقتها وإنما خطط لها لتعيش على المدى البعيد. ونحاول توضيح كيف استطاع المستعمر أن يستغل المادة التاريخية وتوظيف المعرفة الأنثروبولوجية لدعم كيانه لفترة طويلة من الوقت، حتى بعد خروجه من المنطقة.

–التكتيك الأنثروبولوجي:

في حقيقة الأمر، وكما أشارت إلى ذلك بعض الدراسات[1]، فإن الجزائر في البدء كانت مجهولة لدى المحتل الفرنسي، فكانت لا وجود لها في مخيلته إلا بوصفها قطرا تركيا جديرا بأن يستولى عليه. فكان الجيش الاستعماري عندما حل بالجزائر بحاجة إلى معرفة العدو الذي يحارب ويدافع عن الأرض المحتلة،

فما كان عليه إلا أن يعرف المناطق التي تحتضن المحاربين معرفة دقيقة، ومن هنا بدأت الدراسات الإثنوغرافية العسكرية في التطور والتنامي، وكان هذا أمرا استراتيجيا.

بعد أن تمت عملية الاحتلال تبين للمحتل أن الجزائر أضحت قابلة للمعاينة في الميدان، وهذا إلا بفضل مقاربة شاملة سرعان ما تحولت إلى أنثروبولوجيا تكتيكية. وبعد مرور عقد من الزمن على الاحتلال، أقدمت فرنسا على إجراء تحقيق واسع النطاق سمح بجمع قرابة أربعين مجلدا بين 1844 و1867، لقد نال العسكريون نصيبهم من هذا التحري وكان على رأسهم كاريت وبوليسيي Carette et Pelissier، فلم يطمئن القادة والضباط العسكريون على هذه المعلومات إلا بعد أن استدعى مختلف العلماء والمتخصصين في التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبية والفيزيائية والحفريات لكي توفر نظرة أمينة ما أمكن عن هذا "الآخر" أي الجزائري العربي أو البربري[2].

-علم الأنثروبولوجيا:

هو علم دراسة الإنسان في ثقافته وبنائه الاجتماعي، ويذكر جاك لومبار أن هذا العلم يهتم بدراسة المجتمعات البعيدة والغريبة، أي دراسة الإنسان "الآخر" الذي يختلف عن الإنسان الغربي في ثقافته وعادته وتقاليده، ودرجة وعيه وتقدمه، وهذه إشارة إلى الشعوب البدائية ذات الثقافة البسيطة والتقليدية مقارنة بثقافة الإنسان الأبيض(الغربي)[3]. حيث تبرز مهمة الأنثروبولوجيا في دراسة الأفراد والجماعات والتعرف على مقوماتهم وثقافتهم، ثم ترتيبها وتصنيفها. وعندما تطلع بدقة وجدَ على المعلومات وتكون رصيدا من المعرفة الكافية، تظهر مهمة الاستعمار من أجل نهب الخيرات ورسم سياسة التوسع في جميع جهات البلد المستعمر. ومهما كان هدف الأنثروبولوجيا فإن مناهجها والأدوات العلمية التي سخرتها للعسكريين والضباط الفرنسيين جعلت منها علما خادما لهذا الكيان، حيث تم استغلال المعلومات في ضوء قواعد وترتيبات محددة من أجل تحقيق عدة أغراض استعمارية، اتضحت في الميدان كالتجهيل والتجويع والنهب والتعذيب والتشريد، ورسم الاستراتيجيات القريبة والبعيدة المدى.

-الاستعمار وتبرير الدراسات الأنثروبولوجيا(البحث عن المعرفة):

في الوقت الذي استعان فيه الاستعمار بخدمات الأنثروبولوجيين استطاع أن يجد مبررات لتوظيف علماء الأنثروبولوجيا لدراسة المستعمرات، تمثلت في غياب الدراسات التاريخية حول هذه الشعوب. وحتى الدراسات التي توفرت قبل الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى قلتها قامت فرنسا بالتأكد منها في الميدان بواسطة علماء الأنثروبولوجيا. لقد ألصقت بالأنثروبولوجيا تهمة العلم الذي يخدم الاستعمار، لا لشيء سوى أن البعض رأى أن الدراسات المونوغرافية والإثنولوجية التي أنجزها الغرب على الشعوب التي استعمرها

عملت على كشف خصوصيات المجتمعات، ويرجع البعض الآخر قيام الأنثروبولوجيا بهذه المهمة إلى غياب الكتابات والدراسات التاريخية لهذه المجتمعات[4]. يعبر الأنثروبولوجي الأنجليزي إفانز بريتشارد عن العلاقة بين الاستعمار والأنثروبولوجيا بقوله: "إذا كانت السياسة الاستعمارية لحكومة ما، تقوم على حكم شعب من الشعوب بواسطة رؤسائه، فمن المفيد أن يعرف من هم هؤلاء الرؤساء، ما هي وظيفتهم، وسلطتهم وامتيازاتهم، وواجباتهم، فإذا سلمنا بأن حكم شعب ينبغي أن يتم وفقا لشرائعه الخاصة وعاداته الخاصة، فيجب أولا أن نكتشف هذه الشرائع وهذه العادات"[5]. لقد سخرت الأنثروبولوجيا في البداية من طرف المستعمر لاحتلال الشعوب بواسطة استغلال المعلومات المجمعة عن الأهالي التي سمحت لهم بنهب خيراتهم الاقتصادية وسلبهم مقوماتهم الثقافية، وذلك باستخدام وسائل متنوعة كالتجهيل والإفقار، القهر والإكراه والعنف وحتى القتل. هذا ما حدث للشعب الجزائري من الفترة الممتدة ما بين 1945–1954 عندما أقدمت فرنسا على تجريد المواطنين من ممتلكاتهم وأراضيهم وتهجيرهم إلى الجبال. لقد حاول ألكسيس دو توكوفيل Alexis de tocqueville الربط بين السياسة الاستعمارية والمعرفة حول الجزائر من خلال تحليل إحدى المراسلات الاستعمارية التي تطرقت إلى دراسة العادات والتقاليد والأعراف السائدة لدى الجزائريين، مضمونها:"لم تكن لنا أية أفكار واضحة عن مختلف القوميات التي تسكن المنطقة ونواميسها الاجتماعية، وقد كنا نجهل أبسط المعاني لأي كلمة من اللغة التي يتحدثونها وحتى جغرافية البلد نفسه، موارده، مجاريه المائية، مدنه والخصائص المناخية[6]. حيث يضيف نفس الكاتب "فعندما نتمكن من اللغة ومعرفة الخلفيات وممارسات العرب، وعندما نتمكن من اكتساب نفس الهيمنة التي يكنها هؤلاء الرجال للحكم السابق(أي الحكم التركي) عندئذ يصبح المجال متاحا لنا لممارسة أساليبنا في الحكم ومن تم فرنسة البلاد ولفها من حولنا[7]. لقد تبين لنا من هذه الرسالة أن الحركة الاستعمارية على الجزائر لم تقتصر على فرض منطقها بالقوة، ولكن سمحت لها الدراسة الأولى التي استقتها عن الشعوب الأخرى المسماة (بدائية ووحشية) ببلورة الفكرة الإيديولوجية للتدخل الاستعماري المبرر على أساس إيديولوجي مقبول بالنسبة له(أي الغرب)، وقد تجلى ذلك فيما كتبه أرنست مرسيي Ernest Mercier الذي ينتمي من حيث أعماله إلى الفترة (1870–1890) في كتابه سنة1901 تحت عنوان"مسألة الأهالي في الجزائر في بداية ق20–.la question indigène en Algérie au commencement de XX siècle فقد بدا له أن وضع المعارف حول السكان الأهالي غير كاف، والحال أن المعارف حول هؤلاء السكان هي التي لا تبعث على الرضا، وهو سبب طيب للخلوص إلى أن هناك فرقا بين الأوروبيين والأهالي ومن تم حق الأوائل في إدارة شؤون الآخرين.[8] إذ مهما كانت طبيعة الدراسات الكولونيالية على الجزائر، فإنها قد

خدمت التغلغل الاستعماري في المنطقة. وقد أخذت الدراسات التاريخو-أنثروبولوجية على الجزائر، ثلاث أصناف[9]. تميز كل صنف عن الآخر حسب التطور المرحلي والاستراتيجي الذي اعتمد عليه المستعمر.

أ-الدراسات الاستكشافية قبل الاحتلال التي اعتمد فيها المستعمر على الدراسات التاريخية للمنطقة ليأخذ صورة أولية عن ما يهمه، خاصة تضاريس البلاد، مناخها وجبالها ووديانها وحتى مسالكها المختلفة. نذكر في هذا الصدد دراسات كل من بايسنالpeyssonnel(1725) وشاوshaw(1720-1752).

ب-الدراسات العسكرية إبان الاحتلال وتميزت بالطابع العسكري، وكمثال نذكر تلك التي أقيمت على منطقة ترارة بتلمسان، من طرف الضباط نواكس NOIX وقينارGUINARD، وبواتل BOITEL الذين ركزوا على المعرفة المعمقة للمنطقة من كل الجوانب.[10] ولعل أشهر الدراسات كانت لمنطقة القبائل (تيزي وزو) التي أنجزها كل من Hanoteau وكذلك letourneux تحت عنوان"منطقة القبائل وأعرافها" التي صدرت عام 1893.

ج-الدراسات الكولونيالية الأكاديمية، نستطيع أن نشير في هذا المحور إلى دراسة Emile Masqueray وهو أحد الجامعيين الذين اهتموا بالإشكالية الاستعمارية من الزاوية العلمية، تجلت أعماله فيما كان ينشره في المجلة السياسية والأدبية ما بين 1876 و1877 عندما كان أستاذا بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر، ومن خلال كتابه أيضا الذي صدر بباريس1886 تحت عنوان la formation des cites chez les populations sédentaires de l'Algérie حول قبائل جرجرة والشاوية وبني مزاب. أظهر فيه أسلوبه الأنثروبولوجي المبني على الإقامة والمعاينة والمقارنة.

-اطلاع الاستعمار على تاريخ المنطقة:

استعانت الإدارة الاستعمارية بالمعرفة التاريخية لمنطقة شمال إفريقيا عامة، وقد كلفها ذلك عدة سنوات قبل هذا التاريخ المذكور لجمع المعلومات اللازمة لتحقيق أهدافها. وما يؤكد على أن التاريخ كمادة معرفية وكأخبار عن الأمم السابقة كانت له أسبقية على الأنثروبولوجيا بالنسبة للاستعمار الغربي، هو وجود كثير من الوثائق والمخطوطات التي تصنف منطقة "البربر" و"منطقة إفريقيا الشمالية" التي تتحدث عن المماليك البربرية ومماليك فاس والجزائر وغيرها. وكل هذه الوثائق والمعلومات وكذا المعطيات التاريخية كانت من اجتهاد الكثير من المعاصرين والمسافرين والقنصليين المتوجهين إلى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط وتحديدا إلى شمال إفريقيا[11]. حيث أن ما قيل عن غياب الدراسات التاريخية فسح المجال للأنثروبولوجيا لإجراء البحوث الميدانية على مناطق مختلفة من الجزائر، يبقى مجرد افتراض غير مؤكد، ما دام أن الشواهد

التاريخية والكتابات التي نشرت قبل تاريخ الاحتلال(1830) لم تغفل عن تسجيل الماضي الاستعماري لشمال إفريقيا بالنسبة لأوروبا. حيث نشر F.Pananti كتابه سنة1820 يرجع إلى تأريخ الوجود الروماني للمنطقة[12].

إن هذه الشهادات والوثائق والمخطوطات التاريخية تدل على مدى أهمية المعرفة التاريخية لدى المستعمر التي بحث عنها العسكريون الفرنسيون لتعزيز وجودهم في الجزائر. ومن خلال هذه المعرفة تمكنت الدراسات الكولونيالية ذات الطابع التاريخي والإثنوغرافي للجزائر من الظهور والتطور. إذ مهما كانت هذه الدراسات تتميز بالوصف الإثنوغرافي ذي البعد الأنثروبولوجي الاستعماري فهي قبل كل شيء كانت تتميز بالطابع التاريخي للمنطقة.

-وقائع الاستعمار الفرنسي للجزائر:

إن وقائع الاستعمار الفرنسي في الجزائر(أي جرائمه)كثيرة لا تعد ولا تحصى وأبشعها حدثت إبان ثورة التحرير الجزائرية(1954-1962). ولبشاعة ألوان التعذيب والجرائم من المذابح والمجازر يصنف البعض من الباحثين الجزائريين من خلال كتاباتهم المستقاة من شهادات وأحداث واقعية، الاستعمار الفرنسي في الجزائر جريمة ضد الإنسانية[13]. غير أن الكتابات التاريخية ظلت غائبة خلال الفترة(1830-1954) من جانب الجزائريين، ذلك لأن الاستعمار قد بالغ في تزوير الوقائع والأحداث التاريخية، قاصدا بذلك إلى تعقيدنا، أي جعلنا نشعر بعقد النقص، وإلى إظهارنا بمظهر يتامى التاريخ، دون ماض, أو وجود كدولة وكأمة، كانت لها مساهمتها في الحضارة الإنسانية. ويرجع السبب إلى أن كتابة التاريخ كما يرى بعض المؤرخين هو الذي يكتب بأعلام أبنائه لأنهم أدرى بوقائعه ومجرياته الصادقة. وفي مقابل ذلك ظهرت كتابات الفرنسيين وفيرة في هذا المجال التي نراها دوما أنها كتابات مزيفة غرضها تنظيف التاريخ الفرنسي من ما اقترفه من جرائم ضد الشعب الجزائري.[14]وتعد هذه صورة من صور طمس الحقائق وتشويهها التي لازال العالم الغربي يعتمد عليها إلى اليوم في تدخلاته العسكرية والسياسية في كثير من بلدان العالم الآخر. وعلى هذا الأساس ينبغي أن يكتب تاريخ بلادنا كما يرى نايت بلقاسم بعقلنا بطريقة منهجية ومنظمة، وبنزاهة علمية، ولكن أيضا بروحنا، تماما كما تفعل جميع الأمم[15].

إن الذين كتبوا عنا من المؤرخين الغربيين قد اتخذوا من أرشيف بلدانهم مصادر للبحث وأهملوا بقية دور الوثائق، خاصة التركية والتونسية والجزائرية والليبية، عن قصد أو غير قصد فوقع بعضهم بذلك في أخطار كثيرة وكبيرة. لقد حاول هؤلاء المؤرخون اتهام شعوبنا بأنها عقيمة القريحة، فحسب إدعائهم لم يعثروا على وثائق كتبت بأيدي مغربية، ولا وجدوا ما يعتمدون عليه في دراساتهم التاريخية. ويقول مؤلف

كتاب: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر(1827-1847) أن الأرشيف التونسي والجزائري والليبي، العربي منه والتركي بقي مهملا تماما، وقد بقي أكثر من 500دفتر عربي وتركي في الجزائر غير مفهرسة ولا عرفت محتوياتها. ويضيف: إن هذه الدفاتر تشكل مصدرا أساسيا لدراسة الحكم التركي بالبلاد من حيث الإدارة والاقتصاد وجباية الضرائب وتأثير الحباس، وبصفة عامة تعد هذه الوثائق مصدرا لدراسة المجتمع الجزائري أثناء وجود الأتراك بالبلاد[16].

-تعريف الاستعمار وأدواره:

في حقيقة أمره هو امتداد للحروب الصليبية التي كانت في ظاهرها حروبا دينية، وفي باطنها حروبا استعمارية[17]. والاستعمار يأخذ عدة أشكال وألوان، فالشكلان الأوليان للاستعمار ظهرا في عصور الغرب القديمة، وفي تاريخ آسيا البعيد، يعمل الأول ذو النمط الأمبراطوري على التوسع المستمر لأراضي الأمبراطورية(الفرسية، الرومانية،الصينية...) بفتوحات متوالية.

أما الشكل الثاني ذو الطبيعة الاقتصادية بشكل مباشر أكثر فهو يعمل على إنشاء مساحة متقطعة تضم محطات تهدف إلى تأمين شبكة طرق بحرية، وكثيرا من المستعمرات ولدت من رغبة الهيمنة التجارية والهيمنة أيضا على ثروات اقتصادية لبلدان ضعيفة. ولا تشير كلمة "استعمار" فقط إلى الأشكال المختلفة لتوسع قوة الأمبريالية خارج ميدانها، بل أيضا إلى شكليات إقامة مستعمرين في مناطق قلما تكون مأهولة لكنها ذات قدرات زراعية جيدة، أو مواد أولية غير مستثمرة في حالة كهذه يتم اختلال ميزان السكن تدريجيا إلى أن يتوصل أخيرا إلى تهميش السكان الأصليين[18] .

-الاستعمار والايديولوجيا:

إن الايديولوجية التي استخدمها المستعمر في جميع المناطق التي احتلها انطلقت من الاعتماد على ثنائيات كبيرة مثل غرب-شرق، الغرب-الآخر، المستعمر-المستعمر، المتقدم-المتخلف، وهذه الثنائيات مدعمة بروح العنصرية والإيديولوجية الغربية. وهي مبنية أساسا على العرقية الغربية، ومحاولة إقناع الأهالي بصحة هذه الثنائيات، وكما يقول ليفي-ستروس: أن الثقافة هي التي تصنع العرق وليس العكس، أي العرق هو الذي يصنع الثقافة[19]. حاول الاستعمار أثناء تواجده بالجزائر توظيف هذه الايديولوجية بكل الطرق والوسائل وهذا بدعم من المعرفة التي جمعها الأنثروبولوجيون، ومقاربتها نفسيا فقد دخل في حرب الأفكار، وسخر كل إمكانياته لإعاقة الحركة الفكرية ليس في الجزائر فحسب، بل في كامل البلاد العربية والإسلامية وتشويهها مستعينا بالمستشرقين أمثال لويس ماسينيون الذي كان مستشارا في وزارة المستعمرات الفرنسية، وكذلك بالحملات الفكرية الاستشراقية، وفي هذا الإطار يقول مالك بن نبي " حين ينبع عقل

واع، فإن الاستعمار يحاول بوسائل شتى تحطيمه، فإذا بدا عصيا عنيدا حطم أسرته ليشل نشاطه، وهكذا يعوق الحياة الفكرية في البلاد.[20].

-الاستعمار والاقتصاد:

أرادت فرنسا أن تهيمن على الاقتصاد بواسطة زعزعة التنظيم الذي تفرضه القبيلة، والمستند إلى الملكية العائلية والجماعية. حيث سعت إلى نشوء الملكية الفردية من أجل شل العلاقات الاجتماعية. وفعلا تمكنت من هذه الخطة، حيث جاءت ولادة الملكية الفردية بتفكيك القبيلة وبالتالي الملكية الجماعية للفرد. فقد كان هدف فرنسا ليس توزيع الأراضي المحددة إلى دوارات(جمع دوار)، وتقسيمها إلى ملكيات فردية داخل كل دوار، بل هدفها كان أعمق من ذلك وهو تكوين الفرد، حيث تبين هذا من رسالة وجهت إلى ف. لاكروا محتواها" أن ما يجب أن تكونه ليس الملكية الفردية، بل الفرد".[21] لأن الفرد يرتبط بغيره من الأفراد بالعديد من الروابط غير المادية التي يعرف المجتمع كيف ينسجها، والتي تعبر عن درجة المجمعة. إن تفريد الشخص البشري داخل المجتمع ومجتمعه يشكل جوهر ما كانت تبحث عنه فرنسا تحت غطاء الملكية، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن المشروع الاستعماري هو الذي أشاع وغرس فكرة عدم وجود الملكية الخاصة في الجزائر من أجل أن يضم إلى أملاك الدولة المستعمرة أكبر قسم من الأراضي، وذلك بتوظيفه ما سماه بنظرية ملكية الرقبة Nue-propriété أي أن الملكية الخاصة لم تكن موجودة وأن القبائل لم تكن تتمتع إلا بحق الانتفاع بالأراضي التي كانت تستعملها، فلم تكن أرض القبيلة ملكية جماعية بمعنى أنها لم تكن ميدانا لعمل جماعي أو لعمل تقدمه الجماعة[22].

وعلى المستوى المادي بعدما فتت الملكية أدخل الاقتصاد الزراعي في لعبة الضرائب التي تدفع نقدا، حيث أثقلت كاهل الملاك والأفراد، وعادة ما كانت تدفع في زمن جني المحصول مما أدى إلى عرض وفير للقمح الذي أدى بدوره إلى تخفيض سعره. فالقمح الذي كان ينقل إلى مرسيليا بأسعار منخفضة شكل الطامة الكبرى للفلاح الجزائري الذي أرغم على دخوله نمط الاقتصاد المفتوح بدون أي استعداد مادي، وطبعا كان التبادل غير المتكافئ بين الفلاح والقطاع الاستعماري في البيع والشراء، والقضاء على اقتصاد الاستهلاك والتحول المباشر لاقتصاد الكفاف التقليدي قد أدى إلى إقرار حالة التبعية للاقتصاد الرأسمالي المتطور. ومن كل هذه الممارسات، نستنتج أن لعبة النقد التي أدخلها المستعمر على اقتصاد جزائري كان بدائي بوسائل إنتاجه كانت تخفي وراءها حالة من الاستغلال الكبير الذي عرف به النظام الرأسمالي الغربي في جميع المستعمرات.

-الاستعمار والثقافة:

دخلت الجزائر تحت هيمنة خطيرة في محتواها الفكري والإيديولوجي عندما أصابها الغزو الثقافي، الذي يعتبره البعض من المفكرين الجناح الحامي والواقي للغزو العسكري. أو كما يقول محمد الغزالي" الأعداء إذا شنوا غارة على بلد ما، فإنهم لا ينزلون به سائحين، ولا زائرين متفرجين، وإنما ينزلون بهم مستبحين بيضته، وكاسرين شوكته، فإن كانوا طلاب مغانم استنزفوا خيره ولم يدعوا لأهله إلا الفتات، وإن كانت لهم أغراض دينية أو اجتماعية وضعوا الخطط القريبة والبعيدة لمحو شخصية الأمة وتغيير ملامحها، وكما ينقل النهر من مجرى إلى مجرى آخر، تنقل الأمة رويدا رويدا من مجراها العقلي الأول إلى مجرى آخر يرسمه خصومها ويدفعونها إليه دفعا"[23].

إن الاستعمار الفرنسي للجزائر لم يكن له هدف أو هدفين وإنما عدة أهداف تحت مظلة الاحتلال. فقد كان طامعا في الخيرات، ومثقلا بضغائن قديمة تتمثل في العقيدة واللغة التي جاءت بها. ولولا اطلاعه على التاريخ لما كان بمقدوره أن يصنع الأدوات والوسائل التي تمكنه من تسطير أهداف طويلة الأمد، لأنه كان يدرك أن الغزو العسكري سينتهي فما عليه إلا التفكير في البحث عن قنوات تمكنه من الانتقال إلى أشكال جديدة من الغزو هي أكثر خطورة من الأول. سمحت لها هذه الأشكال بإيجاد مكانا لها في الجزائر من أجل التوسع في شمال إفريقيا. ليس فقط في وقت الاحتلال وإنما على المدى البعيد أي بعد خروجها، وفي هذا السياق يقول عمر ين قينة" إن الاحتلال الفرنسي قد حقق بعض النجاح المذكور إبان وجوده حتى يوم رحيله المادي في 1962 في صنع أشباه رجال يخدمونه، لكنه حقق نجاحا أعظم غير منتظر بعد رحيله، بفضل هؤلاء وقد سهر سياسيا واستعماريا قبل رحيله على خطة توزيعهم، وإسناد الأدوار لهم وزرعهم في الأجهزة الإدارية[24].

-الاستعمار والمجتمع:

استطاعت فرنسا أن تؤدي الدور الاجتماعي بداية من التحليل التاريخي للمجتمع الجزائري، مستعينة بمناهج الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية فراحت تفكك كل المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية التي يعتمد عليها في الحياة اليومية وتعتبر مرجعا للقوة الاقتصادية والتماسك الاجتماعي، وهي القبيلة والملكية والزاوية، وهذه العناصر كانت تنظر إليه فرنسا الإطار المرجعي للمجتمعات المسماة تقليدية.

فالقبيلة هي الإطار الاجتماعي والسياسي تنشد التوازن الاجتماعي والاستقرار، وتصمن أيضا معاش أوفر للعائلات المنضوية تحتها، وتحفظ النظام من النزاعات الداخلية، وتحافظ على سيادة التعاون المنطقي في إطار الملكية الجماعية والخاصة. كذلك يمثل النظام العقاري السمة الأساسية في التنظيم

الاجتماعي. كما لعبت القبيلة في المحافظة على النظام الرمزي، وفكرة الشيخ ، وتعزيز الإيديولوجية الأبوية[25].

لقد حدثت سياسة التفكيك ليس فقط في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، لكن أيضا على المستوى العسكري. فكان إذا تفاجأ المحتل بانطلاق ثورة أصيلة، فإنه يسعى من يومها الأول إلى وضع مخطط لتفكيكها من الداخل قبل أن يفكر في مواجهتها علنيا، بحيث يكون ثورة مضادة من داخل الثورة الأصلية، تستخدم شعاراتها ووسائلها لتشويه صورتها أمام الرأي العام المحلي والعالمي، أو تحافظ على سريتها وتكون نفسها أكثر لتكون بديلا مهما للتفاوض باسم الثوار الحقيقيين[26].

هكذا تمكنت فرنسا في كل خطواتها واستراتيجياتها من فرض منطقها خاصة في المجالات التي سطرتها قبل الاحتلال وأثناءه، ولكنها لم تفلح خلال ثورة التحرير بشكل خاص من فرض منطقها على المواجهة العسكرية التي لقنتها دروسا في القتال من طرف جيش التحرير الذي قدم تضحيات أفشلت كل القراءات التاريخية والتحقيقات الأنثروبولوجية التي اعتمد عليها المستعمر.

الخلاصة :

نستطيع القول أن الجزائر خضعت للقراءة التاريخية المعمقة من قبل المحتل الفرنسي بالاعتماد على الحملات الاستعمارية القديمة التي تعاقبت عليها، وجسدتها ميدانيا من أجل التأكد منها بواسطة الدراسات الأنثروبولوجية والتحريات العلمية، وخاصة عندما كلفت أحسن الضباط والعلماء والعسكرين بهذه المهمة. كما قامت بلعب عدة أدوار مهمة لتجسيد هيمنتها في مجالات الاقتصاد والثقافة الاجتماع ولفقتها بالايديولوجية الاستعمارية التي هي عبارة عن أوراق استخدمها المستعمر في كل البلاد التي غزاها. فمن خلال هذه المقاربة اكتشفنا أن مجالات الثقافة والاقتصاد والمجتمع كانت المحاور الأساسية لتمديد عمر الاستعمار في مستعمراته القديمة. حيث تبين أن هناك تبعية معرفية واقتصادية وسياسية تنخر المجتمع اتضحت في مظاهر الفقر والأمية والنهب، وبقي الصراع القائم بقوة حول مسألة الهوية والمرجعية، فعوض أن يوظف التاريخ الصحيح لقراءة وتجديد الهوية والشخصية الوطنية القوية في ظل تطور المشهد الثقافي والسياسي، لازالت أزمة كتابته تبرز من فترة لأخرى، وعوض أن يوظف التراث المعرفي الأنثروبولوجي المجمع إبان فترة الاحتلال لخدمة أغراض التنمية، ظل هذا التراث حبيس الأدراج والمكتبات الأجنبية والأرشيف، يستعمله المستعمر القديم لتجديد سياساته في كل مستعمراته القديمة من دون أن يستثمر من قبل الحكومات المستقلة لبناء استراتيجيات مستقبلية في مجالات متعددة.

الإحالات

1-فيليب لوكا جون كلود فاتان-جزائر الأنثروبولوجيين- نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، ترجمة محمد يحياتن، بشير بولعراف، وردة لبنان، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، وزارة المجاهدين، 2002، ص7.

2-نفس المرجع، ص9.

3-جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997.

4-مولاي الحاج مراد، مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية، في وقائع الملتقى:أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران 22.23.24نوفمبر1999، ص21.

5-إيفانز بريتشارد، الإناسة المجتمعية وديانة البدائيين في نظريات الأناسين، ترجمة: حسن قبيسي، دار الحداثة، لبنان، ط1، 1986، ص127.

6-فيليب لوكا جون كلود فاتان، المرجع السابق، ص94.

7-نفس المرجع، ص97.

8- نفس المرجع، ص25.

9-فرداجي محمد أكلي، الإشكالية المعرفية للسوسيولوجي الكولونيالية في الجزائر، دراسة عينة من الأبحاث الكولونيالية التي أنجزت حول منطقة القبائل، في علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، أعمال الملتقى الوطني علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، أية علاقات؟ تنسيق عبد القادر لقجع، وهران أيام5,4, و6ماي2002، دار القصبة للنشر، الجزائر، ص98.

10-Nedroma et le pays des Traras. Description par M.Boitel.A.Canaval. S.G/A.P.O tome XI.1891.

11-فرداجي محمد أكلي، المرجع السابق، ص95.

12-نفس المرجع، ص96.

13-أنظر: سياسة التعذيب الاستعمارية إبان الثورة التحريرية وتداعياتها المعاصرة، تحت إشراف مجاود محمد. مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.س.بلعباس/الجزائر2006، ص9.

14-جيلالي بلوفة عبد القادر، الكتابات الفرنسية حول التعذيب –دراسة نقدية في كتاب: أرابائيل برانش، في سياسة التعذيب الاستعمارية إبان الثورة التحريرية وتداعياتها المعاصرة، المرجع السابق.ص210

15-مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية،ج2، دار الأمة،الجزائر، 2007، ص274.

16-أرجمند كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر(1827-1847)، نقله عن التركية، ترجمة: عبد الجليل التميمي، ط2 ، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1974، ص4.

17-محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف القاهرة، 1997، ص50.

18-بيار بونت، ميشال إيزار، معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة وإشراف: مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع"مجد"، 2006، ص63,66.

19-سالم يفوت، الاستشراق، وعي بالذات من خلال وعي بالآخر، أيس، الغيرية .. الآخر.. مقولات التحاور وإمكانات اللقاء، مجلة فلسفية، العدد2007/02، مؤسسة الأخبار للصحافة، الجزائر، ص42.

20- محمد العاطف، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، ط1، 2009، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر ، ص88.

21-عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1983 ص68.

22-نفس المرجع، ص19.

23-الشيخ محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة، الجزائر، 1989،ص44.

24-محمد العاطف، المرجع السابق، ص70.

25-عدي الهواري، المرجع السابق، ص20-21.

26-نفس المرجع ،ص70.